ETHICAL TEACHINGS IN THE HOLY QURAN AND ESTABLISHMENT FOR CIVILIZATION

Researcher: Israa Abdul-Jabbar Qasim
Researcher's Email: esraagasam123@gmail.com
Supervisor: Dr. Hussein Abd Al-Muhammadi
Al-Mustafa International University, College of Sciences and Knowledge,
Department of History of Islamic Civilization.

DOI: HTTPS://DOI.ORG/10.31973/AJ.V3I143.3969

ABSTRACT

The Holy Quran is taken for a great reference of ethical sciences. Although scholars and Quranic exegetes have studied carefully the Quranic researches on ethics, all such studies and researches have not yet touched on the method of connecting the Quranic ethical teachings with the topic of establishment for civilization and the topic of the direct interconnection between ethics and history.

In all of its doctrinal, legal and ethical teachings, Islam creates emphatically a link between word, deed, value and practical attitude. Ethical teachings in Islam represent the common thread running through all fields of life, including the political, social and cultural.

The current study, entitled: '*Ethical Teachings in the Holy Quran and Establishment for Civilization*,' aims at demonstrating the role played by ethics in the process of building a human civilization. Without doubt, ethics and its items have their own operative effect on the reality of man's social life, both the material and the mental. This is so because any true human life in any human society that is deprived of morals will definitely be lacking the true meaning of humanity. History has recorded that many bygone human communities were destined to ruin and then fading out once their individuals committed ethical perversions.

Unless the individuals of a human community abide by moral values, they will unquestionably have to face hurtful termination. As they lose their ethical values, human nations lose therewith all viabilities of survival. Laws alone cannot meet even the basic needs of man who, consequently, will experience states of depression, spiritual emptiness and lack of incentives of living a decent life.

Activation of laws without there being a solid foundation of ethical values to be enjoyed by individuals is impossible. It is clear that unless there is a prime mover created in the selves of individuals, all man's exterior efforts are worthless. Therefore, there must be an ethical-behavioral criterion through which human societies hang on to human values in the selves in their individuals. Human values are enough to build sound societies and put right all material and mental breaches that may be found in the mentalities of their individuals.

The current thesis deals, yet somewhat briefly, with three main topics. The first topic deals with the meanings, concepts, and basics of ethical teachings, while the second topic is concerned with the meanings, concepts and basics of civilization. As for the third topic, it is dedicated to explaining the morals and their role in the establishment of civilization.

Keywords: Ethical teachings - the Holy Quran - Civilization.

التعاليم الأخلاقية في القرآن الكريم والتأسيس الحضاري

الباحثة إسراء عبد الجبار قاسم ساجت الاستاذ الدكتور حسين عبد المحمدي
جامعة المصطفى (صلّى الله عليه وآله) العالمية – كلية العلوم والمعارف
قسم تاريخ الحضارة الاسلامية

(مُلَخَّصُ البَحث)

يُعد القرآن الكريم مصدراً عظيماً للمعارف الأخلاقيّة، على الرغم من أنّ العلماء والمفسّرين، قد تناولوا البحوث القرآنية في دائرة الأخلاق بالبحث والدّراسة، إلا أنّ هذه الأبحاث والدراسات لم تتطرق إلى كيفية ربط التعاليم الاخلاقية في القرآن بالتأسيس الحضاري وموضوع ربط الأخلاق بالتاريخ بشكل مباشر، والإسلام في تعاليمه العقديّة والتشريعية والأخلاقية يربط بين القول والعمل والقيمة والسلوك، و التعاليم الأخلاقيّة في الإسلام قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والحضارية، وقد هدفت هذه الدراسة والتي تحمل عنوان (التعاليم الاخلاقية في القرآن الكريم والتأسيس الحضاري) إلى بيان دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانيّة، فالأخلاق لها أثرها في واقع الحياة الاجتماعية للإنسان، سواء كانت ماديّة أم معنويّة، لأن المجتمع البشري بلا أخلاق ستفقد الحياة الإنسانية فيه مفهومها الواقعي، والتاريخ يشهد على أنّ كثيراً من الأقوام البشريّة صار مصيرها إلى الدمار والاندثار بسبب انحرافاتهم الأخلاقيّة، فاذا لم يتمسك أفراد المجتمع بالأخلاق، فستكون نهاية المجتمع أليمة، والأمم التي فقدت أخلاقها، فقدت معها أيضاً مقومات الاستمرار والبقاء في الحياة، والقوانين وحدها لا تستطيع ان تلبّي حاجة الانسان وسوف يعيش حالة من الاكتئاب والخواء الروحي وقلة الدافع نحو الحياة الكريمة؛ لأنّ العمل بالقوانين من دون وجود قاعدةٍ متماسكةٍ من القِيم الأخلاقيّة لدى الفرد غير ممكن ؛ لأنّه إذا لم يتوفر المحرك الذاتي للإنسان، فالسّعي الظّاهري لن يُجدي نفعاً، ولا بد من وجود معيار سلوكي أخلاقي يستطيع المجتمع من خلاله المحافظة على القيم الانسانية فيه، فالقيم الانسانية تبني المجتمع وترمم الخلل المادي والمعنوي لدى أفراده، وسوف يتناول هذ البحث وبشيء من الاختصار ثلاث مباحث: المبحث الأول: التعاليم الاخلاقية مفهومها وأسسها، والمبحث الثاني: الحضارة مفهومها وأسسها، وفي المبحث الثالث: الأخلاق ودورها في التأسيس الحضاري.

الكلمات المفتاحية: التعاليم الأخلاقية – القران الكريم – الحضارة.

المبحث الأول : التعاليم الأخلاقية المفاهيم والأسس

المطلب الأول : المفاهيم

أولا: تعريف التعاليم :

١ـ لغةً: تعاليم جمع لمفردة تعليم، يقال علمه الشيء تعليما، فتعلّم، وليس التشديد هنا للتكثير، بل للتعدية ويقال أيضا تعلم بمعنى أعلم (الرازي، مختار الصحاح، ص٤٥٤)، والتعاليم هي أوامر، إرشادات، توجيهات واجبة التَّنفيذ سواء أكانت شفهيّة أم خطيّة تُعطى لشخص يُعهد إليه القيام بعمل خاصّ أو بمهمَّة خاصة.(معجم اللغة العربية المعاصر، مادة تعليم).

٢ـ اصطلاحاً: يكتسي مفهوم التعاليم في التعريف الاصطلاحي دلالات متعددة، وهي إن اختلفت في اللفظ متفقة في المعنى، الذي هو تلك العملية التي يقوم بها الراشد ليجعل المتعلم يكتسب المعارف المختلفة، والتعليم هنا يختلف عن مفهوم التربية، وإن كان يتقاطع معها في مجالات متعددة، فالتعليم يتخذ بعدا كونيا يشمل مختلف مجالات الحياة؛ أي أنه نشاط إنساني يتمّ وفق مجموعة من النظم والمبادئ والأدوات والأهداف، من أجل إحداث النمو في مختلف قوى الأفراد و ميادين الحياة المختلفة ، مما يدل على أن التعليم عملية واسعة النطاق لا يشرف على تصميمها وإدارتها طرف واحد، بل المجتمع البشري برمته، ويختلف التعليم عن التعلّم بكون هذا الأخير عبارة عن نشاط يكتسب الفرد بموجبه المعارف والمواقف، وبهذا المعنى يصبح التعلّم عملية تغير دائمة في سلوك الإنسان(سلسلة التكوين، نظريات التعلم، ص٢٤).

ثانيا: تعريف الأخلاق

١ـ لغة: تطرّق علماء اللغة لمفردة الأخلاق في كتبهم لتعريفها من الناحية اللغوية وكيفيّة اشتقاقها، ويمكن القول إن أغلبهم قد أتفق على أن الأخلاق جمع خلق، والخُلُق – بضمِّ اللام وسكونها – هو الدِّين والطبع والسجية والمروءة، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها(ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٨٦). وقال الفيروز آبادي: "الخُلق: بالضمِّ، وبضمتين: السجية والطَّبع، والمروءة والدين(الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص٨٨١)"، ويقول الرَّاغب الاصفهاني في مفرداته: "والخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد... لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلْق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة"(الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص٢٩٧)، وقال ابن فارس: "الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملامسة الشيء. ومن ذلك: الخُلُق وهي السجية؛ لأن صاحبه قد قُدِّر عليه"(ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة، ص٣٢٩)، وفي التفريق بين

الخَلْق (بفتح الخاء) والخُلق (بضمها)، قال الراغب: "والخَلْق في الأصل واحد كالشَّرب والشُّرب...، لكن خُصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المُدرَكة بالبصر، وخُصَّ الخُلْق بالقوى والسجايا المُدرَكة بالبصيرة"(الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص٢٩٧).

وفي التفريق بين الخُلُق والخِيم قال القرطبي "وحقيقة الخُلُق في اللغة هو ما يأخذ الإنسانُ به نفسه من الأدب يُسمَّى خُلُقًا؛ لأنه يسير كالخِلْقة فيه، وأما ما طُبِع عليه من الأدب فهو الخِيم (بالكسر) السَّجيَّة والطبيعة، لا واحد له من لفظه، فيكون الخُلُق الطَّبع المتكلَّف، والخِيم الطبع الغريزي، أي: رجعت الأخلاق إلى طبائعها(القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٨، ص٢٢٧).

٢ـ اصطلاحا: أمّا في التعريف الاصطلاحي ، فقد عرَّف الجرجاني الخلق والأخلاق بأنَّه: "هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا(الجرجاني، التعريفات، ص١٠١).

وعرّفه ابن مسكويه بقوله: "الخلق: حال للنفس، داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمُّ ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالرويَّة والفكر، ثم يستمر أولًا فأولًا، حتى يصير ملكة وخلقًا(ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص ٤١).

وقال الغزالي في تعريف الخُلُقَ: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تَصدُر الأفعال بسهولة ويُسرٍ من غير حاجة إلى فِكْر ورويَّة(الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص٤٧). أمّا الأخلاق من وجهة نظر الشرع الاسلامي ، فقد عرف بعض الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن: "مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي، لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه(مقداد يالجين، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص٧٥).

كذلك عند النظر والاستقراء لنصوص الشارع تجد أن الاستخدامَ الشرعي للفظ (الخُلُق) لم يختلف كثيرًا عن الوضع اللغوي، فقد ذكر القرآن الكريم لفظة الخُلُق في آيتين فقط، الأولى في قوله تعالى (إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)(سورة الشعراء: ١٣٧)، يقول الألوسي في تفسير الآية: "أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا عادة الأولين يُلفِّقون مِثْلَه ويدعون إليه، أو ما

هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدَّمونا من الآباء(الآلوسي، روح المعاني، ج١١، ص١٦٧).

والآية الثانية خاطب فيها ربّ العزة سبحانه وتعالى حبيبه ورسوله المصطفى محمدًا (ص) بالقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(سورة القلم: ٤)، يقول صاحب تفسير الأمثل: خُلُق من مادّة (الخلقة) بمعنى الصفات التي لا تنفكّ عن الإنسان، وهي ملازمة له، كخلقة الإنسان، وفسّر البعض الخُلُق العظيم للنبي بالصبر في طريق الحقّ، وكثرة البذل والعطاء، وتدبير الأُمور، والرفق والمداراة، وتحمّل الصعاب في مسير الدعوة الإلهية، والعفو عن المتجاوزين، والجهاد في سبيل الله، وترك الحسد والبغض والغلّ والحرص ..، وبالرغم من أنّ جميع هذه الصفات كانت متجسّدة في رسول الله (ص) إلاّ أنّ الخُلُق العظيم له لم ينحصر بهذه الأُمور فحسب، بل أشمل منها جميعاً، وفسّر الخُلُق العظيم أيضاً بـ (القرآن الكريم) أو (مبدأ الإسلام) ومن الممكن أن تكون الموارد السابقة من مصاديق المفهوم الواسع للآية أعلاه، وعلى كلّ حال فإنّ تأصّل هذا (الخُلُق العظيم) في شخصية الرّسول (ص) هو دليل واضح على رجاحة العقل وغزارة العلم له ونفي جميع التّهم التي تنسب من قبل الأعداء إليه(مكارم الشيرازي، تفسير الامثل، ج١٨، ص٣٠٣)، فحُسْن الخُلُق في الشريعة الاسلامية هو التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدَّب بها عبادَه في تعاليم الاسلام.

فالأخلاق هيئة ثابتة راسخة مستقِرة في نفس الإنسان غير عارضة طارئة، فهي تُمثِّل عادة لصاحبها تتكرَّر كلما حانت فرصتها، فإن كانت الصفة عارضة فليست جديرة بأن تُسمَّى خُلُقًا، فمَن بذل المال مرة أو مرتين لا يقال: إنه كريم سخي، كما ينبغي عدم التكلف في صدور الفعل بحيث يَصدُر بشكل تلقائي من غير تردُّد وبصورة عَفْوية، وينبغي التنبه إلى أن الصفات المستقرة في النفوس ليست كلها من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صِلَة لها بالخُلُق، ولكن الذي يَفصِل الأخلاق ويُميِّزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلةً للمدح أو للذم، فبذلك يتميَّز الخُلُق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية، فإن الغريزة المعتدلة ذات آثار في السلوك، إلا أن هذه الآثار ليست مما يُحمَد الإنسان أو يُذَم عليه.(عبد الرحمن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج١، ص١٠).

وهنا أيضاً مسألة يجب الالتفات إليها وهي أن تعريف (الأخلاق) من الناحية الاصطلاحية يختلف بعض الشيء عن تعريف (علم الأخلاق)، فعلم الأخلاق هو العلم بالقواعد والسلوكيات الحسنة والسيئة الواردة عن الوحي والعقل، وطريقة استكمال النفس بالفضائل والتخلي عن الرذائل، وآثار الأخلاق على الفرد والمجتمع، يقول ابن مسكويه في

تعريفه لعلم الأخلاق: "هو علم يعرف به حال النفس، من حيث ماهيتها وطبيعتها وعلة وجودها وفائدتها، وما هي وظيفتها التي تؤديها، وما الفائدة من وجودها، وعن سجاياها وأميالها وما ينقلها بسبب التعاليم عن الحياة الفطرية(ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص٨٦).

ويشير العلامة الطباطبائي في تعريفه لعلم الأخلاق إلى أنه فن من الفنون فيقول: "علم الأخلاق هو الفن الباحث عن الملكات الانسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والانسانية، وتميز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان التحلي والاتصاف بها سعادته العلمية، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٧٠).

فعلم الأخلاق هو العلم الذي يبحث عن أسس اكتساب الصفات الحسنة وكيفية الابتعاد عن الصفات السيئة وآثار الأخلاق السّيء، وأمّا الأخلاق فهي الهيئات والسجايا والطبيعة الراسخة في النفس فمنها ما هو مكتسب ومنها ما هو فطري وطبيعي وتجدر الإشارة إلى مسألة مهمة أخرى تطرق لها العلامة الشيخ المرتضى المطهري حينما يستعرض النظريات الاخلاقية وينتقد كل واحدة منها عندها يبين أن الأخلاق من مقولة العبادة فيقول: "مما تقدم يتضح بجلاء أن الحقيقة كاملةً تتلخص في اعتبار الاخلاق مقولة العبادة، فالإنسان يتبع سلسلة من التعاليم الالهية بقدر ما يعبد الله تعالى بطريق اللاشعور، ووقتما تتحول عبادته اللاشعورية إلى عبادة شعورية واعية – كما هو هدف الأنبياء – فستصبح كل أعماله وسلوكياته ذات صبغة أخلاقية بلا فرق بين عمل وآخر، حتى أكله ونومه. وبعبارة أخرى، إذا جعل الإنسان من تكليف الحق تعالى ورضاه منطلقا لنشاطه واساسا لبرنامج حياته وهدفا يروم الوصول اليه، فسوف تكون كل حياته من البدو حتى الختام وبكل أشكالها شعاعا أخلاقيا، وسيكون كل شيء لله وفي الله (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين)(سورة الانعام: ١٦٢). ويقول أيضا: "واساسا فان الاخلاق تعتبر ممر إلى عالم المعنى معبرا الى المعنويات في حياة الانسان، انه منفذ يتعرف الإنسان من خلاله على عالم المعنويات ويدخل منه إلى عالم الدين(مرتضى المطهري، رؤى جديدة في الفكر الاسلامي ج٢٤، ص٤٥٠.٤٥٣)، وبحثنا يسير في هذه الدائرة للمفهوم الأخلاقي.

المطلب الثاني: الأسس الأخلاقية

هناك بعض الأسس العامّة نرى من الضروري الإشارة إليها في هذا المطلب ترتبط بموضوع الأخلاق، وسنكتفي بذكر أهمها وهي التي ذكرها جملة من العلماء في بحوثهم حول الأخلاق ومنها هل الأخلاق قابلة للتغيير أم لا؟ وهل الأخلاق نسبية أم مطلقة؟ وهل الأخلاق أمور اعتبارية أم لها واقع؟

أولا: الأخلاق وقابليتها للتغيير

من المسائل المهمة والمؤثرة في علم الأخلاق هي مسألة قابلية الأخلاق للتبديل والتغيير، وقد تمّ كتابة دراسات وبحوث كثيرة في خصوص هذه المسألة، وهناك آراء عدّة في هذا الخصوص، وقد أشار إليها بعض العلماء في كتبهم ومنهم الشيخ مكارم الشيرازي مؤلف كتاب الأخلاق في القرآن، قائلا : "البعض يقول إنّ الأخلاق غير قابلة للتغيير، فمن كانت ذاته ملوَّثة في الأصل يكون مجبولًا على الشرّ، وعلى فرض قبوله لعمليّة التّغيير، فإنّه تغيير سطحي، وسرعان ما يعود إلى حالته السّابقة، ودليلهم على ذلك، بأنّ الأخلاق لها علاقةٌ وثيقةٌ مع الرّوح والجسد، وأخلاق كلُّ شخصٍ تابعة لكيفية وجود روحه وجسمه، وبما أنّ روح وجسد الإنسان لا تتبدلان، فالأخلاق كذلك لا تتبدل ولا تتغير، واستدلوا على ذلك أيضاً، بمقولة تأثر الأخلاق بالعوامل الخارجية؛ وأنّ الأخلاق تخضع لمؤثّراتٍ خارجيَّةٍ من قبيل الوعظ والنّصيحة والتأديب، فبزوال هذهِ العوامل، تعود الأخلاق لحالتها الأولى، فهي بالضّبط كالماء البارد، الذي يتأثر بعوامل الحرارة، فعند زوال المؤثّر، يعود الماء لحالته السّابقة(مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، ص٢٣).

ثم يضيف: أمّا المؤيدون لتغيير الأخلاق، فقد أجابوا على الدّليلين السّابقين، وقالوا: لا يمكن إنكار علاقة الأخلاق وارتباطها بالرّوح والجسم، ولكنه في حدّ (المقتضي)؛ وليس (العلّةَ التّامةَ) لها، و بعبارةٍ اخرى يمكن أن تهيئ الأرضيّة لذلك، لكن ذلك لا يعني بالضّرورة أنّها ستؤثر تأثيراً قطعيّاً فيها، من قبيل مَن يولد من أبوين مريضين، فإنّ فيه قابليةٌ على الابتلاء بذلك المرض، ولكن وبالوقاية الصّحيحة، يمكن أن يُتلافى ذلك المرض من خلال التّصدي للعوامل الوراثية المتجذرة في بدن الإنسان... وعلاوةً على ذلك يمكن القول؛ إنّ روح الإنسان وجسمه قابلانِ للتغيير، فكيف بالأخلاق التي تعد من معطياتهما؟

وممّا ذُكر، يتبيّن جواب دليلهمِ الثّاني؛ لأنّ العوامل الخارجيّة قد يكون لها تأثيرها القوي جداً، ممّا يؤدّي إلى تغير خصوصيّاتها الذاتيّة بالكامل، وستؤثر على الأجيال القادمة أيضاً، من خلال العوامل الوراثيّة... ويقصّ علينا التأريخَ قصصاً، لأناس كانوا لا يراعون إلّاً ولا ذِمّةً، ولكن بالتّربية والتّعليم تغيّروا تَغيُّراً جَذريّاً، فمنهم من كان سارقاً محترفاً؛ فأصبح عابداً متنسّكاً مشهوراً بين الناس(مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، ص٢٣).

وأخيراً يشير إلى وجود رأي ثالث في هذا الخصوص فيقول: هناك قولٌ ثالثٌ وهو أنّ بعض الصّفات الأخلاقيّة قابلةٌ لِلتغير، وبعضها غير قابل، فالصّفات الطّبيعيّة والفطريّة غير قابلةٍ لِلتغير، ولكنّ الصّفات التي تتأثّر بالعوامل الخارجيّة يمكن تغييرها، وهذا القول لا دليل عليه؛ لأنّ التّفصيل بين هذهِ الصّفات، مدعاة لقبول مَقولة الأخلاق الفطريّة والطبيعيّة،

والحال أنّه لم يثبت ذلك، وعلى فرض ثُبوته، فمن قال بأنّ الصّفات الفطريّة غير قابلةٍ لِلتغيّر والتّبدّل؟ (مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، ص٢٣).

وقد استدل الشيخ على إمكانية التغيّر والتبدل بجملة من الآيات والرّوايات فضلا عن الأدلة العقليّة والتّأريخيّة التي سردها، ويستدل على أنّ الهدف من بعث الأنبياء والرّسل وإنزال الكتب السّماوية، إنّما هو لأجل تربية وهداية الإنسان، وهذا أقوى دليل على إمكان التربية، وترشيد الفضائل الأخلاقيّة لدى جميع أفراد البشر، ويؤكد ذلك الحديث المعروف عن النبي الأكرم : (إنّما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق (وهو دليل ساطعٌ على إمكانيّة تغيير الصّفات الأخلاقيّة.

ثانيا: الأخلاق المطلقة والنسبية

كذلك من الأسس المهمة والأساسية في علم الأخلاق والتي شغلت حيزاً كبيراً من دراسات علماء الأخلاق والمفكرين هي كون الأخلاق مطلقة أم نسبية، وهنا نشير باختصار إلى هذا الأساس الأخلاقي ليتضح المراد منه، وموقف الفكر الإسلامي من هذه المسألة.

المطلقية في الأخلاق تعني أن معايير القيم – أخلاقيةً كانت أم جماليةً – مطلقةٌ موضوعيةٌ خالدةٌ متجاوزةٌ للزمان والمكان، ومن ثم يمكن إصدار أحكام أخلاقية، فالإطلاق في الأخلاق المراد به الأخلاق الثابتة التي لا تقبل التغيير والتبديل مع تغير الزمان والمكان سواء اتفقت عليها العقول المستقيمة أو التي أقرها دين الله الحق، فالمراد بالمطلق هو الثابت الذي لا يقبل الاختلاف والتغيير، ولا يختلف عليه العقلاء، ولنضرب مثالاً على ذلك، فالصدق يبقى في كل زمان ومكان وبشكل مطلق هو الخلق الحسن المطلوب، ويبقى الكذب في كل زمان ومكان هو الخلق المذموم، ولهذا النظرية الأخلاقية القائلة بإطلاق القضايا والصفات الأخلاقية تؤكد على أن الأخلاق مطلقة وغير نسبية.

وهناك نظرية أخرى رائجة اليوم بالخصوص عند المفكرين الغربيين تقول بإن الأخلاق أمور نسبية وليست مطلقة، وترى بشكل عام أن جميع المعارف والقيم الإنسانية ليست مطلقة؛ بل تختلف باختلاف الظروف والاعتبارات، ومنها النسبية الأخلاقية، إذ يرى أصحاب هذا الرأي القول بأن فكرة الخير والشر تختلف باختلاف الأزمان والجماعات، وكل نسبي لا يتصف بالثبات ولا يملك القداسة، وهو قابل للتغير والاختلاف حسب الظروف، ومنها القيم الأخلاقية، وقدّم بعض فلاسفة الأخلاق تعاريف خاصّة حول الاطلاق والنسبيّة في الأخلاق، ومثالاً على ذلك فقد اعتبر بعضهم أنّ مجرد تقيّد الأحكام الأخلاقيّة ببعض القيود الخاصّة مانع من إطلاقها وإطلاق الأخلاق، واعتبروا أيضاً أنّ القول بإمكان وجود طرق متعدّدة للوصول إلى الهدف هو نوع من القول بالنسبية(مصباح يزدي، أسس الأخلاق، ص١٠٤).

فضلا عن هذا فهناك اتجاهات مختلفة في بيان مصدر الأخلاق، فبعض المفكرين الغربيين يرون بأن مصدر الأخلاق من خارج الإنسان، وهؤلاء ينقسمون إلى رأيين، الأول يقول بأن مصدر الأخلاق هو سلطة عليا إلهية، وهو غالباً هم المؤمنون بديانة سماوية كالمسيحية، والرأي الثاني يرى بأن مصدر الأخلاق هو المجتمع وشؤونه(عبد الرحمن بدوي، الأخلاق النظرية، ص٩٤).

وهناك اتجاه يرى أن مصدر الأخلاق هو الإنسان نفسه، ويختلف هؤلاء إلى ثلاثة أقسام، الأول يرى أن مصدر القيم والأخلاق هو اللذة والمنفعة التي ينالها الإنسان، والثاني يرى أن مصدر الأخلاق هو العقل، في حين يرى الثالث أن مصدر الأخلاق هو الضمير(مقداد يلجن، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، ص٢١٩)

وخلاصة الكلام: إن المراد من الإطلاق في الأخلاق هو أنّ بعض الأحكام الأخلاقيّة مطلق وغير مقيد بأيّ قيد، وأما النسبيّة في الأخلاق فمعناها أنّ كلّ الأحكام الأخلاقيّة لها قيود وشروط، ولكن كلّ فلاسفة الأخلاق متفقون على كون بعض الأحكام الأخلاقيّة مقيد بقيود وشرائط خاصّة به، إلّا أنّ الاختلاف بينهم يدور حول إمكانية إيجاد حكم من بين الأحكام الأخلاقيّة معتبرٍ بلا أيّ قيد أو شرط أو عدم إمكانية ذلك(مصباح يزدي، أسس الأخلاق، ص١٠٤).

ثالثا: الأخلاق أمور واقعية أم اعتباريّة

كذلك من الأسس الاخلاقية التي تناولها فلاسفة الاخلاق والمفكرون بصورة عامّة مسألة واقعيّة القيم الأخلاقيّة أو عدمها، وبمعنى آخر هو البحث في العلاقة بين القضايا الأخلاقية والقضايا الحاكية عن الوجود والواقع العيني، وقد طرح فلاسفة الأخلاق آراء مختلفة في هذه المسألة، فهناك ثلاثة آراء في هذا الخصوص، الرأي الأول الذي يذهب إلى القول بالاعتبارية المحضة؛ و الرأي الثاني القائل بالواقعية المحضة، والرأي الثالث الوسط بينهما هو الذي يقول بالاعتبارية المبنية على الواقع.

وهنا نقف عند مصطلح الاعتبار والواقع بشكل مختصر لبيان المعنى المراد منهما، فيستعمل مصطلح "الاعتبار" بمعاني مختلفة منها: المعقول الثاني، وفي مقابل الأصالة في بحث أصالة الوجود واعتبارية الماهية، وأحيانًا يطلق الاعتبار على التبعيّة للذوق الشخصي أو لإرادة الجماعة أو للأوامر الصادرة من شخص ما وعلى هذا الأساس، تطلق الاعتبارية على رؤية تقبل أن معيار القيمة الأخلاقية هو الأوامر الصادرة من شخص أو الذوق الشخصي أو إرادة الجماعة، والمقصود من الواقع هو ما يقابل الاعتبار بالمعنى الذي وضحناه، فعندما نقول: (ان للقيم الأخلاقية واقعية عينية) فهو بمعنى أنها ليست متعلقة بالذوق الشخصي أو الجماعي أو أوامر وتوصيات شخص أو أشخاص، ومن الواضح أن

الواقع هنا يختلف عن الواقع في الأمور المحسوسة، القيم الأخلاقية بما أنها تحكي عن العلاقة الواقعية والوجودية الضرورية بين الأفعال ونتائجها فهي من الأمور الواقعة(أردكان، مجلة الدليل، العدد١٠، ص٢٠٤). ومن المناسب أن نشير بشكل مختصر وإجمالي عن النظريات الثلاث حول هذه المسألة:

١. الاعتبارية المحضة

يعتقد القائلون بهذه النظرية أنّ القضايا الأخلاقية بأجمعها قضايا أمرية، ولو كانت في هيئة القضايا الإخبارية كـ (الصدق حسن)، فعلى أساس هذه الرؤية عندما نقول: (هذا الفعل حسن) أو (يجب الاتيان بذلك الفعل) نعني أنّ الإله أمر بإنجازه وأمره معتبر ويلزم اتباعه، فمنشأ ومعيار القيمة الأخلاقية هو الأمر الإلهي أو نهيه، أي أنّ هذا الفعل حسنٌ؛ لأن الإله أمر بإنجازه وذاك الفعل قبيح؛ لأن الإله نهى عنه، فالأمر الإلهي أو النهي الإلهي هو العلة التامة لكون الفعل حسنًا أو قبيحًا وليس العكس. فليست هناك واقعيّة عينية في الصفات والأفعال الاختيارية، فلو لم يأمر الإله بهذا الفعل لم يبق فرق بين العدل والظلم؛ لأنّ الحسن بناءً على هذه النظرية هو الفعل المأمور به من قبل الله والقبيح هو المنهي عنه كذلك، بحيث لو كان الإله يأمر بالظلم لكان الظلم حسنًا ولو كان ينهى عن العدل لكان العدل قبيحًا، ومن بين المسلمين يعتقد الأشاعرة بهذه النظرية، فينكرون الحسن والقبح الذاتيين والحسن والقبح العقليين، ويقبلون الحسن والقبح الشرعيين، إذ نرى أبو الحسن الأشعري يصرّح: "أنّ قبح الكذب ناشئ من نهي الله عنه ولو كان يأمر به لكان حسنًا(الأشعري، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، ص١١٦)، ويقول عضد الدين الإيجي بهذا الخصوص: "القبيح: ما نهى عنه شرعًا والحسن بخلافه، ولا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، وليس ذلك عائدًا إلى أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع؛ بل الشرع هو المثبت له والمبين، ولو عكس القضية فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعا؛ وانقلب الأمر(الإيجي، المواقف في علم الكلام، ص٣٢٣)، فحسب هذا الرأي القائل باعتبارية القيم الأخلاقية، فالعقل لا يمكنه تشخيص حسن الأفعال أو قبحها؛ لأن العقل لا يدل على حسن الشيء وقبحه في حكم التكليف، فمعنى الحسن ما ورد الشرع بالثناء على فاعله ومعنى القبيح ما ورد الشرع بذم فاعله(الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، ص٢٠٧).

فبناءً على نظرية ليست للأخلاق أيّ واقعيّة في نفسها، ولهذا السبب يمكن تغييرها على أساس إرادة الإله سبحانه وتعالى، تسمى هذه الرؤية (الاعتبارية المحضة) نظرًا إلى عدم ابتناء الإرادة الإلهية على الواقع والمصالح والمفاسد الواقعية.

٢. الاعتبارية المبتنية على الواقع

بعد أن وضحنّا النظرية الأولى وهي الاعتبارية المحضة التي ترى أن اعتبار القضايا الأخلاقية مرتبطة بالذوق الشخصي أو الأوامر والنواهي الصادرة من جهة ما، نتطرق باختصار أيضاً عن نوع ثاني من النظريات التي ترى القضايا الأخلاقية اعتبارية، وهي ما يطلق عليها (الاعتبارية المبتنية على الواقع)، فبعض المفكرين المسلمين طرحوا هذه النظرية بتقارير مختلفة، فذهب بعض العلماء إلى أنّ قسمًا من الأحكام الأخلاقية التي ترتبط بمجال الأخلاق الاجتماعية تنشأ من حكم العقلاء بمدح أو ذم بعض الأفعال وفاعلها على أساس قاعدة جلب المنفعة ودفع الضرر، فيقول: منشأ هذا الحكم كما ذكرنا في محله ليس إلّا حكم العقلاء باستحقاق فاعل العدل للمدح وفاعل الظلم للقدح(المحقق الأصفهاني، نهاية الدراية، ج١، ص٣٧٥).

فالعقلاء يقومون بتأسيس القضايا الأخلاقية وترسيخها ، فوجودها منوط بجعلها من قبل العقلاء؛ لأنّ العقلاء مع أنهم يعتبرون القضايا الأخلاقية، ولكن يعتبرونها على أساس الواقعية العينيّة التي منها المصالح والمفاسد العامّة، فهذه النظرية لا تهدف إلى جلب مصالح جهة معينة أو طائفة خاصة، فالقضايا الأخلاقية بالرغم من اعتباريتها فهي عامة، بمعنى أنها صادرة من جميع العقلاء، ولذلك يحكم بها الشارع أيضًا لأنه أعقل العقلاء(أردكان، القيم الأخلاقيّة؛ بين الاعتبار والواقع، ص٢١١).

٣. الواقعية المحضة

والنظرية الثالثة والأخيرة هي ما يطلق عليها (بالواقعية المحضة)، والتي تذهب إلى أنه لا يوجد فرق بين القضايا الأخلاقية وقضايا سائر العلوم من المنظار المعرفيّ، بمعنى أن القضايا الأخلاقية توصف الواقعيات الأخلاقية، وهذه الواقعيات تمّ تحديدها وتبيينها بأشكال مختلفة في النظريات المرتبطة بالواقعية. بناءً على الواقعية المحضة تعتبر القضايا الأخلاقية من قضايا (الوجود) أي من القضايا الحاكية للواقع(مصباح اليزدي، دروس في فلسفة الاخلاق، ص١٩).

وينشأ الاعتقاد بواقعية القضايا الأخلاقية من أن المفاهيم الأخلاقية لها واقعية عينية، وهي حاكية عن العلاقة الواقعية بين أفعال الإنسان وكماله الحقيقي، ويعتقد القائلون بهذه النظرية أن جميع القضايا الأخلاقية نظرية ولكنها ترجع إلى القضايا البديهية، وفي هذه الرؤية يعد الاتصاف بالفضائل وانجاز الأعمال الحسنة أو ترك الاتصاف بالصفات الرذيلة وترك الأعمال القبيحة من الأمور القيمية واللازمة لأجل مطلوبية الكمال ومطلوبية الكمال بدورها ناشئة في النهاية من حب الذات، وأمّا حب الذات فهو أمر وجداني يُدرَك بالعلم الحضوري.

ويمكن تبيين واقعية القيم الأخلاقية من خلال بيان أنّ لكمال الإنسان الاختياري قيمة ذاتية، وكمال الإنسان الاختياري يطلق على مرتبة من مراتب الوجود، فكمال الإنسان الاختياري أمر واقعي، وكذلك العلاقة القائمة بين الأفعال والصفات الاختيارية والكمال الاختياري، فهي علاقة واقعية وتكوينية، بمعنى أنّ كل واحد من أفعال الإنسان وصفاته الاختيارية له تأثير واقعيٌّ في كمال الإنسان، إيجابيًّا كان أو سلبيًّا (أردكان، القيم الأخلاقيّة؛ بين الاعتبار والواقع، ص٢١٤).

المبحث الثاني: الحضارة المفاهيم والأسس

بعد أن تناولنا في المبحث الأول ما يرتبط بالأخلاق من مفاهيم وأسس، سنتطرق في هذا المبحث إلى المفاهيم والأسس المرتبطة بالحضارة وبشكل مختصر أيضاً.

المطلب الأول: تعريف مفهوم الحضارة

تعدّدت تعريفات مصطلح الحضارة تبعاً لاختلاف المدارس الفكريّة ووجهات النظر المختلفة، وهنا نشير إلى تعريفها من الناحية اللغوية والاصطلاحية.

١. الحضارة لغة: ذكر اللغويون معاني لكلمة الحضارة التي تعد من المصطلحات المعاصرة تقريبا، وهي وليدة استنتاجات علماء في العلوم الإنسانية، ولاسيّما علم الاجتماع، ولم يتفق المهتمون في هذا المجال على مفهوم محدد يصلح وينطبق على كل الحضارات، لاختلافها من حيث النشأة والخصائص والظروف والدقة والدور الذي تلعبه، تعني في أصل اللغة إقامة مجموعة من الناس في الحضر، أي في مواطن العمران، سواء كانت مدنًا أم حواضر أم قرى(الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص٤٨١؛ الفيومي، المصباح المنير، ج١، ص١٦٩)، يقول ابن منظور في بيان تعريفها اللغوي:>هي مأخوذة من الحضر والحضرة و الحاضرة وهي: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار(ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج٤، ص١٩٧).

ويرى بعض الباحثين إن معنى مفهوم الحضارة قد توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملًا لجميع أنواع التقدم والرقي الإنسانيين؛ لأنهما لا يزدهران إلا عند المستقرين في مواطن العمران، وأرجع صور التقدم والرقي عند الإنسان إلى أصناف ثلاثة، الصنف الأول: ما يخدم الجسد ويمتعه من وسائل العيش، وأسباب الرفاهية والنعيم، ومعطيات اللذة للحس أو للنفس، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقديم العمراني والزراعي والصناعي والصحي والأدبي والفني، والتقدم في الإنتاج الحيواني، واستخراج كنوز الأرض، والاستفادة من الطاقات المنبثة فيها، وما أشبه ذلك، والصنف الثاني: ما يخدم المجتمع الإنساني، ويكون من الوسائل التي تمنحه سعادة التعاون والإخاء والأمن والطمأنينة والرخاء،

وتمنحه سيادة النظام والعدل والحق، وانتشار أنواع الخير والفضائل الجماعية، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الاجتماعي الشامل للنظم الإدارية، والحقوقية، والمالية، والأحوال الشخصية، والشامل للأخلاق والتقاليد والعادات الفاضلات، وسائر طرق معاملة الناس بعضهم بعضًا في علاقاتهم المختلفة، والصنف الثالث: ما يأخذ بيد الإنسان فردًا كان أم جماعة إلى السعادة الخالدة التي تبدأ منذ مدة إدراك الإنسان ذاته والكون من حوله، وتستمر مع نفسه وروحه الخالدتين إلى ما لا نهاية له في الوجود الأبدي، الذي ينتقل من حياة جسدية مادية يكون فيها الابتلاء، إلى حياة نفسية روحية برزخية يكون فيها بعض الجزاء، ثم إلى معاد جسدي نفسي وروحي يكون فيه كامل الجزاء، ويدخل في هذا الصنف أنواع التقدم الفكري القائم على التأملات الحكمية، التي توصل الإنسان إلى معرفة الخالق، وسر وجود الإنسان، وغايته ومصيره، وواجبه في الحياة الدنيا، وسبل سعادته الأبدية الخالدة (الميداني، عبد الرحمن حبنكة، ص٢٣).

٢ـ الحضارة اصطلاحاً: من خلال بيان المفهوم اللغوي لمصطلح الحضارة يمكن تقديم تعريف واضح لهذا المفهوم الذي تطوّر مع تعاقب العصور وتعدّدت تعريفاته والرؤى الخاصة به، ولكن في واقع الأمر لم يتفق الباحثون في التاريخ والاجتماع والحضارة على تعريف معين لها، وإنما اختلفت تعريفاتهم تبعا لاختلاف عقائدهم ومذاهبهم ومدارسهم، فالبعض يرى أن الحضارة هي عقائد دينية، وازدهار اقتصادي، وإنجازات إنشائية، وأنظمة تشريعية، وتضامن اجتماعي، وفق تقاليد وعادات موحدة، أو قوى حربية، ومنهم من عدها بأنها الإنجازات التي حققتها البشرية، من خلق وسلوك ومعارف، بينما يراها آخر بأنها ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة، سواء كانت الثمرة مادية أم معنوية.(نصر محمد عارف، الحضارة الثقافة والمدنية، ص١٦).

وبالرغم من هذا، يمكن تعريف الحضارة اصطلاحا بأنّها عبارة عن مجموعة من العقائد والمبادئ المنظِّمة للمجتمع في مختلف المجالات كالعلوم، والآداب، والفنون، وما ينجم عنها من أساليب الحياة المختلفة، والأنماط السلوكيّة، وقد ربط ابن خلدون تعريف الحضارة بالرفاهية والعمران فيقول في تعريفها: "أن الحضارة هي التفنّن في الترف بما يشمل الملابس، والمباني، والمطابخ، وكلّ ما يخص المنزل والأمور التابعة له... وهي (الحضارة) أحوال عادية من أحوال العمران تزيد عن الضروري بدرجات مختلفة ومتفاوتة تبعاً لتفاوت الرفاهية، وتفاوت الأمم بقلّتها وكثرتها(ابن خلدون، المقدمة، ص٥٤٨).

وذهب صاحب كتاب قصة الحضارة وليم ديورانت إلى تعريفها بأنّها: "الحضارة نظام اجتماعيٌّ يساعد الإنسان على رفع مُعدّل إنتاجهم الثقافي، والحضارة مكوّنة من أربعة

عناصر أساسيّة ألا وهي: النُظُم السياسيّة، والموارد الاجتماعيّة، والتقاليد الخلقيّة، وأخيراً متابعة العلوم والفنون، وأن نقطة البداية للحضارة هي نقطة انتهاء الاضطراب والقلق(وليم ديورانت، قصة الحضارة، ج١، ص٣).

أمّا نشأتها ، فهي من تفاعل الثقافات والأعراق المختلفة التي تنتهي جميعها في تشكيل الحضارة، ويمكن القول إن الحضارة لا ترتبط بعرقٍ معين، أو جنس مُحدّد، أو شعب من الشعوب، إلّا أنه يمكن أن تُنسب الحضارة إلى منطقة جغرافيّة من العالم، أو أُمة مُعينة من الأُمم، فالحضارة هي وعاء لثقافات متنوعة تعددت أصولها ومشاربها ومصادرها، فامتزجت وتلاحقت، فشكلت خصائص الحضارة التي تعبّر عن الروح الإنسانية في إشراقاتها ، وتعكس المبادئ العامة التي هي قاسم مشترك بين المصادر والمشارب جميعا(التويجري، خصائص الحضارة الاسلامية وآفاق المستقبل، ص٥).

وكذلك من التعريفات الأُخرى لمصطلح الحضارة ما ذكره بعض الباحثين بقوله: "الحضارة هي عبارة عن نتاج الجهد الذي يطبقه الإنسان لتحسين وتطوير ظروف حياته ومعيشته، وهي ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة عن طريق الجهود يبذلها الإنسان لاستغلال المكونات التي من حوله، في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها إلى حياة العمران وتعقيداتها، وتزداد اتساعا كلما ازدادت بأصحابها بعدا عن طبيعة البداوة ومستلزماتها، وذلك في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني وبث أسباب الخير والسعادة فيه(البوطي، منهج الحضارة الاسلامية في القرآن، ص١٩).

وهذه التعريفات هي عامّة تشمل مفهوم الحضارة بشكل مطلق ومن دون تحديد، وأمّا إذا أردنا أن نقدم تعريفا للحضارة وفق النظرة الإسلامية، فيمكن القول إن الحضارة الإسلامية هو الرقي الاجتماعي الذي يقوم على تعاليم والفكر الإسلامي، وهي حضارة إنسانيّة وإسلامية تشمل مختلف جوانب الحياة؛ لأنها حضارة منشئها تعاليم السماء المتعالية، وهي شاملة للرقي الدنيوي والتكامل الانساني الأخروي، وتشمل الفرد والمجتمع ككل، وهي ليست حضارةً مقتصرةً على جنسٍ معينٍ من البشر أو الأقوام، وإنما حضارة شاملة لجميع الأجناس التي تساهم في بنائها، وكذلك هي حضارة وتؤكد على مبادئ إنسانية أساسية كالعدالة، والمساواة، والحرية، ومختلف الحقوق الإنسانيّة، فالتعريف الإسلامي للحضارة على هذا المعنى هو: القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان، وتكون دافعا له إلى تسخير ما خلق الله فيما أمر به؛ لأن إنسانية الإنسان هي قيمته العليا في الحياة، فيجب أن تكون موضع التكريم والاحترام، وعقيدته هي ميزانه وقوته الدافعة وقانونه في نفسه وفي مجتمعه، فيجب أن تكون موضع النظر والاعتبار، وتصرفه في المادة التي هي من نعم الله يجب أن يكون على شكل يحقق الإفادة والنفع والهداية،

عندئذٍ يكون الإنسان متحضّراً راقياً، مشيداً لصرح من الاستقرار والسعادة والتقدم والرقي (الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ج١، ص٥٠).

وخلاصة ما تقدّم يمكننا القول إنّ هناك ارتباطا وثيقا بين الإنسان وقيام الحضارة؛ لأنّ الحضارة كما أشرنا هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته(حسين مؤنس، الحضارة، ص١٣)، فالمجتمع مجموعة من الناس تنشأ بينهم علاقات دائمة بدافع مصالحهم، والناس بدافع هذه المصالح وحاجتهم إلى تلبيتها يحتاج بعضهم إلى بعض، وتقتضي المصلحة أن ينظر الطرفان إلى الأمر نظرة واحدة، ويعدانه مصلحة لكليهما، ولا تكون النظرة واحدة إلا إذا كانت مفاهيمها إزاء الأمر نفسه واحدة، فإذا توحدت مفاهيم الناس توحدت نظراتهم، وبالتالي توحدت المصلحة عندهم، ولهذا قامت العلاقات بينهم وقام المجتمع، ونشأت الحضارة باعتبارها صورة هذا المجتمع في مفاهيمه وأفكاره وقوانينه وأنظمته (التويجري، خصائص الحضارة الاسلامية وآفاق المستقبل، ص٧).

وذهب بعض المفكرين الاسلاميين إلى أن المقصود بالحضارة الإسلاميّة يمكن أن يكون مجموعة الجهود المبذولة من قِبَل العلماء المسلمين، وأدّت إلى إخراج نظريات ناجحة في التكنولوجيا والعلوم على مستوى العالم، وسيطرت الحضارة الإسلاميّة على مجال العلوم، إذ شملت الحضارة الإسلاميّة مختلف الجوانب الماديّة والمعنويّة، وكرست نفسها لتسهيل التقدّم والتطوّر؛ حتّى قيل فيها إنه لا توجد حضارة في الوجود قدّمت للبشرية ما قدّمته الحضارة الإسلاميّة(الشافعي، مقالة بعنوان: ما هي الحضارة الإسلامية).

وأخيراً بخصوص وجه الشبه والاختلاف بين التاريخ والحضارة يمكن القول إنّ علم التاريخ يشتمل على معلومات عن الأنساب والقبائل وشجاعة وكرم الحكام الفرسان وأخبار عن السياسة والاقتصاد، ولكن لم يستمر هذا النهج طويلا، بل أصبح علم التاريخ يحدد أوقات الحوادث وأساليبها وأسباب حدوثها، وبهذا تم ربط التاريخ بكل العلوم، فكان علم التاريخ والحضارة يسيران معا فكلاهما يهتمان بالتجربة الإنسانية (التويجري، خصائص الحضارة الاسلامية وآفاق المستقبل، ص١١).

لهذا نجد الفكرة الحضارية سابقة على الحركة التاريخية، أي أن التاريخ والحضارة يسيران جنبا إلى جنب، فكرة حضارية تؤدي إلى خطوة حضارية أخرى وهكذا، فلا فاصل في الحقيقة بين التاريخ، فالتاريخ والحضارة من العلوم التي تهتم برفع شأن الإنسان وخدمته، يقول الشلبي في موسوعته:>الحديث عن الحضارة من اختصاص أستاذ التاريخ، فهو يوضح بعد دراسة الأحداث التاريخية في دولة ما، ما قامت به هذه الدولة في مجال الحضارة، بمعنى ما فعلته للارتقاء بالإنسان في جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية وغيرها (الشلبي، موسوعة الحضارة الإسلامية، ج١، ص٢٣).

يتضح مما سبق أن التاريخ والحضارة علمان متلازمان مترابطان، فلا يمكن فهم التاريخ بدون الحضارة، ولا الحضارة بدون التاريخ؛ لأن كل علم يكمل الآخر، فالتاريخ يبحث في دراسة الأحداث بصورة مجزأة ولا يهتم بالزوايا الأخرى التي نعرف من خلالها نشاطات الإنسان في مجتمعه، أما الحضارة فتبحث بصورة فلسفية تحليلية لما حدث للإنسان في الماضي وتخطط للمستقبل، فا لقاسم المشترك بينهما هو التجربة الإنسانيّة (التويجري، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، ص١٢).

المطلب الثاني: أسس الحضارة

هناك أسس ودعائم لا تتحقق الحضارة ولا تقوم إلاّ بها، وهذه الأسس عامّة للحضارة الإنسانيّة، وهي قواسم مشتركة تتلاقى فيها كل الحضارات البشريَّة، بغض النظر عن الجنس والمعتقدات، وتعد هذه الأسس الجانب المشترك والعالمي في الحضارة الإنسانيَّة، وهناك خصائص تتميز فيها الأمم عن بعضها في مظاهر حضاراتها المختلفة؛ فكانت هناك الحضارة الإسلاميَّة، والحضارة الغربيّة، والحضارة الصينية وغيرها، فالحضارات تتلاقى في جوانب، وتختلف عن بعضها، وتتمايز في جوانب أخرى، وهنا نشير إلى بعض تلك الخصائص المشتركة وبشكل مختصر.

ويمكن تقسيم الأسس العامة للحضارة إلى ثلاثة أقسام، وهي الأسس المعرفية والعلمية، والأسس الاقتصادية، والأسس الثقافية والاجتماعية، وكل قسم من هذه الاقسام يضم مقولات خاصّة يمكن اعتبارها أساسا للحضارة في ذلك القسم.

أولا: الأسس المعرفية والعلمية

من أهم الأسس التي تعتمد عليها أيّ حضارة هي التطور المعرفي والعلمي، وبدونهما لا يمكن إنتاج حضارة متطورة وراقية، إذ يُعد العلم الظاهرة الأبرز والأكثر أهمية في تاريخ الحضارة الإنسانية، فقد كان عنصر تغيير في حاجة البشر عبر العصور، وتطورت من خلاله وسائل المعيشة وأنماطها، وعلى الرغم من أن استخدام المكتشفات العلمية قد ترتب عنها في عصرنا الحاضر أضرار كبيرة على بعض مظاهر الحياة، فإن العلم يظل ذلك العنصر الفاعل الذي مكن الإنسان من التغلب على الكثير من مصاعب الحياة ، سواء في العصور الماضية أو الحاضرة ، وتسنّى من خلاله تحقيق إنجازات عظيمة تشاهد بوضوح في مجالات مختلفة، يصعب حصرها، ومما يتميز به العلم أنه إنجاز اجتماعي شارك فيه آلاف البشر من مختلف القارات وعبر العصور والثقافات والحضارات المختلفة، بحيث يمكن أن نعتبره مؤسسة حضارية عالمية(الحارثي، مقالة بعنوان: العلم والحضارة عند المؤرخ ابن خلدون).

ويرى ابن خلدون في كتابه المقدمة وفي الفصل الأول منه والذي عنونه (في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري) يبين أن العلم جزء من تكوين المجتمع، وأنه نابع من خاصية التفكير التي نفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات التي تشاطره العيش على هذه البسيطة، وعن هذا الفكر تنشأ العلوم، كما أن هذه العلوم مرتبطة ببيئة اجتماعية معينة، وهي المجتمع المدني، حيث تتوافر فيه وسائل نقل المعرفة وأدواتها، وهو ما لا يتسنّى توفره في المجتمعات التي تعيش حياة البداوة، معتمدة على الرعي وما يتبعه من تنقل وترحال(ابن خلدون، المقدمة، ص٤٢٩).

فهناك علاقة بين العمران والتطور المعرفي والعلمي، فكلما كانت الزيادة والتطور في هذا المجال ظهر أثر ذلك إيجابياً في الآخر، وكذلك دور الأساليب التربوية المتبعة في مؤسسات التعليم في إنتاج الحضارة الراقية، لا سيّما الأساليب التي تقوم على أساس تنمية ملكة التفكير لدى المتعلم، فضلا عن تلقينهم المعرفة العلمية، التي من خلالها ينطلق الإنسان نحو الإبداع الفكري ومن ثم التطور العلمي في المجتمع.

ويجب الالتفات إلى أن الحضارة كما أنّها ترتكز على البحث العلمي، فهي ايضا بحاجة إلى تطور معرفي في كافة المجالات الفكرية والمعرفية، فالجانب العلمي يتمثل في الابتكارات التكنولوجيا وتطوراتها، أما الجانب المعرفي والفكري فهو يلعب دوراً مهمّاً في بناء الحضارة، وأوضح مثال على ذلك الحضارة اليونانية التي كان لها السبق في المجال الفكري والفلسفي والمعرفي، بل وكذلك في مجالات الفنون المعمارية والمنحوتات والشعر والنُظم القانونية وغيرها، التي ساهمت في الرقي وبناء الحضارة اليونانية المعروفة، فالفكر والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أي حضارة إلى الرقي والتكامل المنشود، وإن الحضارات لم تظهر في التاريخ البشري إلاّ يوم أصبح الإنسان قادرا على اكتساب العلوم والمعارف والاستفادة منها في نفع نفسه وغيره. ولم تتطور إلا بتطور العلوم، ولم تتدهور أيضا إلا بتوقف العلوم، فالحضارة متوقفة على العلم وجوداً أو عدماً(الوزاني، مقالة بعنوان: العلم ودوره في بناء الحضارة).

ثانيا: الأسس الاقتصادية

كذلك من الأسس المهمة لنشوء أيّ حضارة وتطوّرها هو تحسن الوضع الاقتصادي واستغلال الموارد بشكل صحيح، ممّا يؤدي إلى خلق نهضة اقتصادية عمرانية حضارية، فالاقتصاد يشمل مختلف الأنشطة المتعلقة بالثروة بهدف تحقيق الرخاء المادي اللازم لسعادة المجتمع، وهو ما تصبو إليه أيّ حضارة، كذلك الاقتصاد يهدف الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة، فينظم طرق استغلالها، وثم يعيد توزيعها لتحقيق الرخاء المادي على المستوى الفردي والجماعي، ومع تطور الشعوب وتعدد وجهات نظر القائمين على الشأن العام تباينت

الأنظمة الاقتصادية التي اعتمدتها الدول، وكل مجتمع تكون موارده الاقتصادية جيدة، تكون فرصة تحقيق حضارة كبيرة متوفرة، فلا حضارة من دون اقتصاد قوي وغني، والنظرية الاقتصادية مفهوم متكامل يقوم على دعامتين هما: الإنتاج والتوزيع، ولكل منهما نظرية تكمل الأخرى، كذلك للنقود نظرية ثالثة تمد الباحث في الدراسات الاقتصادية بمادة جديرة بالنظر العلمي إلا أنها غير منفصلة عن جوهر الاقتصاد الذي هو إنتاج وتوزيع، ومنها مجتمعة تتألف النظرية الاقتصادية(شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص٤٦).

وكما يلعب الجانب الاقتصادي دوراً مهمّاً في نشوء أيّ حضارة، فهو في نفس الوقت يؤثر كثراً في سقوط الحضارة أيضاً، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في كتابه فيقول عن الحالة الاقتصادية للمجتمع ودورها في انهيار المنظومة السياسية وخلق الفوضى في المجتمع في حال فقدان الوضع الاقتصادي الجيد فيقول في الفصل عنونه (نقصان الدفع يؤدي إلى نقصان الإيراد): السبب في ذلك أنَّ الدولة والسلطان هما السوق الأعظم في العالم... إذا حجب السلطان البضائع والأموال والإيراد، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قلَّ حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية، وقلَّت نفقاتهم، وهم معظم المشترين وهجرت الأسواق وتضعف أرباح المنتجات، فتقل الجبايات؛ لأنَّ الجبايات والضرائب تأتي من الزراعة والتجارة والتبادل التجاري الجيد والمعاملات التجارية ،وطلب الناس للفوائد والأرباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة الجبايات الناتجة عن نقصان ثروة الحاكم أو الدولة ... فالمال إنَّما هو متردد بين الحاكم والرعية منه إليهم ومنهم إليه ،فإذا منعه (حبسه عنده) فقدته الرعية(ابن خلدون، المقدمة، ص ١٦٢).

فالحضارة من خلال أساسها الاقتصادي تتوسع وتزدهر وترتقي، إذ يتم استغلال الموارد عن طريق مزاولة الأنشطة الاقتصادية المختلفة وبالخصوص الإنتاجية، وهي مجموعة المعاملات التي يترتب عليها تحقق زيادة في الدخل القومي يقابلها زيادة في الناتج القومي الحقيقي لأيّ مجتمع، وهي تشمل الأنشطة المتعلقة باستخراج مواد أو إضافة قيمة لها بتطويرها لتصبح منتجات، أو تقديم خدمات لعرض المواد والمنتجات في مكان أو في زمان مختلف، وتشمل المنتجات جميع السلع والخدمات، فالمَنجم يستخرج المواد الخام والمصنع ينتج سلعاً وأصولاً والتاجر يسوق المنتجات والطبيب يقدم خدمة والمقاول يبني(الكبجي، النظام الاقتصادي بين الفكر البشري وشريعة الخالق، ص٣٠).

ولكن على الرغم من وفرة الموارد على المستوى العالمي، فإن المجتمعات التي استطاعت أن تبني حضارة متقومة بجانبها الاقتصادي قليلة، وأوضح مثال على ذلك اقتصاديات الدول الغنية أو المتقدمة، فإنها مع تقدمها الاقتصادي لم تتمكن من تحقيق

الرخاء على مستوى أفراد مجتمعاتها، ولم تستطع من بناء حضارة جديدة لفقدانها لبعض المقومات والأسس المهمة لقيام ونشوء وتطور الحضارة، فشعوبها تعانى من ارتفاع معدلات البطالة وتفشي الظلم الاجتماعي وتدني مستوى معيشة الطبقة المتوسطة وزيادة حجم طبقة الفقراء وتركز الثروة بيد الأغنياء، وهذه العوامل تمنعها من بناء حضارة راقية.

ثالثا: الأسس الثقافية والاجتماعية

من الأسس المهمة أيضا في نشوء الحضارة ورقيّها هو العامل الثقافي والاجتماعي والأخلاقي، فتكوين المجتمع وثقافته وسلوكيات أفراده عناصر رئيسة في بناء الإنسان القادر على خلق وبناء الحضارة، ويرى ابن خلدون أن ذلك نابع بصورة أساسية مما يتحلى به المجتمع من آداب ومبادئ وقيم، التي بدورها تزيد من خبرة الإنسان الذهنية فتجعله أكثر ذكاء في عقله وإضاءة فكره(ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٣٣).

والثقافة بتجلياتها المختلفة تلعب دوراً اساسيّاً في بناء الحضارة وتطور المجتمع، يقول إميل دوركهايم عن الثقافة: "هي الأفكار الدينيّة والأخلاق والقيم هي الحجر الأساسي في أي نظام اجتماعي وليست العوامل الماديّة كتقسيم العمل، فالثقافة هي التي تشكّل المجتمع وليس العكس، إن الظاهرة الثقافيّة كالعقيدة الدينيّة يمكن لها أن تكون بحدّ ذاتها عاملًا مهمًّا في تحفيز التطور الاقتصادي والمادي" (انغلز، مدخل الى سوسيولوجيا الثقافة، ص٥٦) فالثقافة هي مجموعة المعارف والمعلومات النظريّة، والخبرات التي يكتسبها الإنسان، ويحدد على ضوئها طريقة تفكيره ومنهج سلوكه في الحياة(مسلم، الثقافة الإسلامية، ص١٦).

ويرى الشيخ مصباح اليزدي انه من الممكن اعتماد ثلاثة تعاريف للثقافة، وهي: الأول: تكون الثقافة شاملة للعقائد والقيم والأخلاق وألوان السلوك المتأثرة بهذه العناصر الثلاثة، وكذلك الآداب والتقاليد والأعراف الخاصة بمجتمع معين. والثاني: اعتبار الآداب والتقاليد اللبنة الأساسيّة للثقافة، وتعرّف الظواهر المجردة للسلوكيات دون الأخذ بنظر الاعتبار مرتكزها العقائدي على أنها ثقافة المجتمع. والثالث: إنها العنصر الذاتي الذي يمنح الإنسان المعنى والاتجاه(اليزدي، الموقع الالكتروني: **http://www.mesbahyazdi.ir.**).

فتعد الثقافة مجموع القيم والقواعد والأعراف والتقاليد والخطط التي تبدع وتنظّم الدلالات العقليّة والروحيّة والحسيّة، وتعمل على الحفاظ على توازن النسق الاجتماعي واستقراره ووحدته، وتوحيد الأنساق الفرعيّة للنسق الاجتماعي عن طريق توحيد الأنماط العقليّة التي تحكمها، فالثقافة تغذي الأنساق الفرعيّة للنسق الاجتماعي بقيم مماثلة فتخلق نسيجًا اجتماعيًّا واحدًا يكون قادرًا على إعادة إنتاج نفسه، لذلك فإن الثقافة في الحقيقة ليست إلاّ المجتمع نفسه، وقد أصبح مظهراً للوعي أو وعيًا، وهذا الوعي هو في ذات الوقت وعي للذات، يمكن من خلاله بناء مجتمع متطور وحضاري(القيسي، العربية لغة وثقافة،

ص٢١٠)، وتتميّز الحضارة الإسلاميّة عن غيرها من الحضارات بمجموعة من الخصائص والأسس فضلا عن التي ذكرناها، ومن أهمها أنها حضارة مصدرها الوحي، أي تعتمد على الإيمان بالله تعالى والتوحيد الكامل والمُطلق، فتعطي لمختلف الأنظمة في الحياة الطابع التوحيدي القائم على الوحدة في العبوديّة، والربوبيّة، والتشريع، والنظر إلى الكون والإنسان الذي يعيش فيه، وفي الوقت نفسه هي حضارة إنسانيّة تكرّم الإنسان وتخدمه، وتهدف إلى التقدّم والرّقي في مختلف نواحي الحياة، وتضم مختلف الأجناس دون التفريق بينهم، وتعطيهم فرصاً متساوية في الحياة، وايضاً هي حضارة أخلاقيّة، فهي تؤكد على الجانب المعنوي والاخلاقي، ولا تعبث بالقيم الإنسانيّة، بل يتساوى النّاس تحت لوائها دون الخضوع إلى معايير مزدوجة، وإن القيمَ الاخلاقيّة هي التي تحكمها وتنظّمها، ومنها العدل، والصّدق، والوفاء بالعهود، وغيرها من القيم الأُخرى(الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ج١، ص٥١).

فهي حضارة تعتمد على تكامل الجانب المادي والجانب المعنوي، وجميع الأفراد في الحضارة الإسلاميّة أمام شرع الله سواء، كما أنها توازن بين الرّجل والمرأة، وبين العقل والوحي، وبين الفرد والمجتمع، وبين الدّين والدُّنيا، فلا تصادم فيها بينهم، وهي بذلك حضارة قائمة على التكامل، وهي ترفض اليأس من الحياة، وتسعى إلى تحقيق السعادة في الدُّنيا والآخرة، فتشمل أحكامها الدُّنيا والآخرة والكون بأكمله، وليس الإنسان فقط، كما أنها حضارة تتفاعل مع الحضارات والعقائد الأُخرى.

فالتعريف الإسلامي للحضارة يختلف جوهريّاً عن الرؤية غير الإسلامية، فالحضارة الإسلامية هي مجموعة القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التي ينفرد بها الإنسان عن الحيوان، وتكون دافعا له إلى تسخير ما خلق الله فيما أمر به ؛ لأن إنسانية الإنسان هي قيمته العليا في الحياة، فيجب أن تكون موضع التكريم والاحترام، وعقيدته هي ميزانه وقوته الدافعة وقانونه في نفسه وفي مجتمعه، فيجب أن تكون موضع النظر والاعتبار، وتصرفه في المادة التي هي من نعم الله يجب أن يكون على شكل يحقق الإفادة والنفع والهداية والشكر لواهب هذا الفضل والإحسان، عندئذٍ يكون الإنسان متحضرا راقيا، مشيدا لصرح من الاستقرار والسعادة والتقدم.

المبحث الثالث: دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية

وهنا نقف عند بعض المقومات للتعاليم الأخلاقية القرآنية وبيان دورها في التأسيس الحضاري.

المطلب الأول: الإنسان كائن أخلاقي

لا شك ولاريب من أنّ الإنسان هو كائن اخلاقي بامتياز، والتعاليم الاخلاقية لها الدور الريادي في بناء الإنسان، حتى ذهب بعض الباحثين إلى القول إنه يجوز أن نستبدل التعريف الفلسفي التقليدي للإنسان أنه (حيوان عاقل) بتعريف بديل يرتكز على خاصية الخصائص التي لا يشترك فيها مع الإنسان كائن آخر، ألا وهي خاصية الأخلاق والمسؤولية الأخلاقية، مما يستوجب معه تعريف الإنسان بأنه كائن أخلاقي؛ لأن أبرز ما يميّز الفعل الإنساني عن مرتبة السلوك الحيواني، قدرة الإنسان على تحويل الطبيعة إلى (ثقافة) وقيم فكرية اعتُبرت دوماً أساساً في التمييز والفصل بين المرتبة الحيوانية الدنيا ومراتب الخلق الحضاري الإنساني؛ الأمر الذي يجعل من النشاط العملي والممارسة الإنسانية ليس مجرد (سلوك) خاضع لقوانين الطبيعة وللفعل وردّ الفعل وللإشباع الغريزي، بل إنه سلوك يرقى إلى مستوى العمل بفضل تلك القدرة التي يتفرد بها الإنسان؛ عمل أو ممارسة تستهدف خلق نظام من المعارف والقيم الحضارية، أي نظام من المقاصد الأخلاقية الضابطة لذلك العمل والسلوك الإنساني(الصغيَّر، المبادئ الأساسية لأخلاق إنسانية في الإسلام).

وقد خاطب القرآن الكريم الإنسان وذريته تميّزًا عن سائر الموجودات، وأنّ له أبعادًا أبرزته وميّزته عن بقية الكائنات، ومكمن هذا الفرق في قابليّة الإنسان للكمال حيث يضع له هدفًا ينشد الوصول إليه(اليزدي، معرفة الذات وبناؤها من جديد، ص٥)، أي: إنّ الإنسان مزوّدٌ في أصل خلقته بمقتضيات تجعله مؤهلًا لمعرفة الكمالات وتمييزها، وقادرًا على أن يسلك الطّريق الصحيح في الوصول إليها، ولا محالة أنّ في مكنون الإنسان حقائق ثابتة تمدّه بالعون في مسيرته نحو الكمال، وتميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية في أنه مزيج قوي متخالف متصارع ، فهو مركب من عقل، وقلب، وإرادة، أي: له حياة عقلية، وانفعالية، وفاعلة، ولكل واحدة من هذه الثلاث آثارها ووظائفها، التي من امتزاجها في هذا الكائن الخاص يكون إنساناً، وبتعبير آخر وهو المتبع في علم الأخلاق إن الإنسان مركب من قوى ثلاث هي: القوة الشهوية، التي هي مصدر الرغائب، من محبة المال والنساء وغيرهما من الشهوات الحيوانية، والأفعال المنسوبة إلى هذه القوة هي الأفعال التي تجلب المنفعة؛ كالأكل والشرب ونحو ذلك. والقوة الغضبية، وهي مصدر العواطف كالشجاعة، والغضب، والأفعال المشربة إليها هي الأفعال التي تدرأ المضار، كالدفاع عن النفس والمال والعرض وغير ذلك.

والقوة العاقلة، وهي التي تدبر البدن وتسوسه، والأعمال الفكرية كلها منسوبة إلى هذه القوة، ولكل واحدة من هذه القوى الثلاث آثارها وخصائصها، و باجتماعها ينشأ الإنسان المفكر الدراك، و باتحادها تنشأ وحدة تركيبية تصدر منها أفعال خاصة، وبها يبلغ الإنسان إلى سعادته التي خلق لأجلها؛ ولأجل ذلك كان الإنسان أخلاقياً دون سائر الكائنات الحية (السبزواري، الأخلاق في القرآن، ص١٨).

المطلب الثاني – التعاليم الأخلاقيّة دعامة للمجتمع الحضاري

كذلك يجب التأكيد على أنّ التعاليم الأخلاقيّة دعامة للمجتمع الحضاري، وأن قيمة المشروع الذي يحمله دين من الأديان تابعة بالضرورة إلى نوع الرؤية للعالم وللإنسان التي يحملها ذلك الدين؛ تلك الرؤية التي تتجلى بالضرورة في جملة مبادئ وقيم أخلاقية، وبناء أية منظومة أخلاقية في أيّ مجتمع لدعم نشأته الحضاريّة يستلزم تعاليم أخلاقية نظريّة يمكن للإنسان تطبيقها في حياته العمليّة، وتحمل مسؤوليته الأخلاقية الفردية والجماعية(الصغيَّر، المبادئ الأساسية لأخلاق إنسانية في الإسلام) لذا نلاحظ أن الخطاب القرآني أوضح وبيّن الأبعاد النظرية والعملية الأخلاقية لإقامة أخلاق تعمّ الإنسانية عامة، وهناك قواعد وخصائص للأخلاق في القرآن الكريم يمكن إيجازها بما يأتي :

الأولى: أن في الإنسان انبعاثاً داخلياً فطرياً إلى الأخلاق، يساير جميع مراحله يمكن التعبير عنه بـ (الحاسة الأخلاقية)، التي يميز بها بين الخير والشر، كما يميز بالحاسة الجمالية المودعة فيه بين الجميل والقبيح، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا﴾ (سورة الشمس: ٧، ٨)، ومن هذه الحاسة الخلقية نستطيع أن نؤسس القواعد الخلقية والقانون الأخلاقي العام.

الثانية: أن القواعد الخلقية هي تلك القواعد التي تخاطب الضمير الإنساني، ويرغب إليها الإنسان لأجل الحقيقة ذاتها وأهميتها الخلفية، فهي لم تكن غريبة عليه، فكانت لها صفة الإلزام، ويظهر ذلك بوضوح في تلك الآيات القرآنية التي ترجع الإنسان إلى عواطفه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(سورة الحجرات: ١٣).

الثالثة: إن القرآن الكريم يقرر أن الإنسان مسؤول عن عمله، فقد أظهر فكرة المسؤولية الأخلاقية الفردية والاجتماعية بالمعنى الكامل، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾(سورة النجم: ٣٩)، فكل شخص مسؤول بالشروط المقررة عن أفعاله الخاصة الشعورية والإرادية، كما أنه فرد من مجتمع يحمل جانباً من المسؤولية الاجتماعية.

الرابعة: أن الإنسان حر في اختيار أفعاله الإرادية، بل يعتبر القرآن أن أساس المسؤولية هي الحرية، وقد بين القرآن الكريم أن كل عمل له جزاء خاص يلائمه وفقاً للفعل الاختياري للإنسان(السبزواري، الأخلاق في القرآن، ص١٦).

وما يهمنا هنا هي السلوكيات والتعاليم الاخلاقية التي من خلالها يمكن بناء مجتمع حضاري مثل تعليم الانفاق لتحقيق التكافل الاجتماعي في المجتمع المتحضّر والمتطوّر، وكان الإنفاق أحد الوسائل التي دعا إليها الإسلام في تعاليمه للقضاء على الطبقية الفاحشة والفوارق الاجتماعية المميزة بين الناس، يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره: وجعل الانفاق من أعظم ما يهتم بأمره، وقد توسل إليه بأنحاء التوسل ايجابًا وندبًا من طريق الزكاة والخمس والكفارات المالية وأقسام الفدية والانفاقات الواجبة والصدقات المندوبة، ومن طريق الوقف والسكنى والعمري والوصايا والهبة وغير ذلك. وإنما يريد بذلك ارتفاع سطح معيشة (الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٣٨٣)

وأكدت السنّة النبوية على الانفاق تأكيداً شديدًا؛ لما له من الأثر في كمال الانسان، قال الله تعالى ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(سورة الحديد: ٧)، يقول صاحب تفسير الأمثل: تعبير (ممّا) تعبير عام ولا يشمل الأموال فحسب بل كل الممتلكات والهبات الإلهية. وهنا يعني أن للإنفاق مفهومًا واسعًا ولا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل . أيضا . العلم والهداية والسمعة الاجتماعية ورؤوس الأموال المعنوية والمادية(الشيرازي الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص٢٧).

المطلب الثالث – التعاليم الأخلاقية والتربية الاجتماعية .

وتعد التعاليم الأخلاقية في القرآن الكريم نوع من التربية الاجتماعية، وهي تعد في الوقت نفسه من أهم مقومات والشروط الضرورية لإقامة منظومة أخلاقية فاعلة ومؤثرة في التأسيس الحضاري، إذ تعتبر التربية والتعليم من أهم الوسائل التي تساعد على تطوّر الشعوب وتحريرها وتساعدها في تمسّكها بهويّتها الثقافيّة المنسجمة مع انتمائها العقائدي وتاريخها الثقافي، وقد أولى الإسلام أهمية كبيرة لمسألة التربية والتعليم وجعل أحد ثمارها المهمة تحقق العدالة الاجتماعية، وهناك توصيات قدّمها الإسلام بخصوص التربية والتعليم، منها ضرورة استثمار جميع القابليات والاستعدادات التي يملكها الإنسان لكسب الكمالات العلميّة والعمليّة لبناء وتطوّر المجتمع، لذا فإنّنا نرى في كل موضع يذكر فيه القرآن إرسال الرسل يرفقها بمسألة التعليم والتربية التي هي جزء من البرنامج الأساسي للأنبياء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(سورة الجمعة: ٢)، وقال رسول الله: "أربع يلزم من كل ذي حجى وعقل من أمتي، قيل: يا رسول الله ما هي؟ قال: استماع العلم وحفظه

ونشره عنده أهله والعمل به"(المجلسي بحار الأنوار، ج١، ص١٦٨)؛ لأن تحقيق المجتمع السليم المتطوّر والحضاري إنّما يتحقّق بعد إيجاد نظام مبتني على أساس القيم الاسلاميّة والانسانيّة وتطبيق جميع القيم الاعتقادية والتربوية والتعليمية، حينها تتحقق العدالة الاجتماعية، لهذا السبب نرى كيف يحثّ القرآن الكريم على التعليم في الكثير من آياته، كقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(سورة المجادلة: ١١)، يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره: لا ريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن ومؤمن عالم، والمؤمن العالم أفضل... ويتبين بذلك أن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا العلم ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع، الرفع درجة واحدة، ويكون التقدير يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات، وفي الآية من تعظيم أمر العلماء ورفع قدرهم ما لا يخفى(الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٩، ص١٨٨)، فالمنهج الذي أتبّعه الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية هو نشر العلم والفضيلة والتربية الصحيحة لجميع أفراد المجتمع.

هذه بعض الأسس النظرية العامة التي أقام عليها الإسلام في تعاليمه صرح بنائه الأخلاقي، وهي أسس كلما التزمت الأمة الإسلاميّة تطبيقها على أرض الواقع عبر حقب وعصور حضارته الممتدة؛ كانت نتائجها مبهرة وعظيمة، وحققت من خلالها حضارة تُمد إليها الاعناق، إلاّ أن منطق التاريخ كان يحتِّم أن يطرأ على محاولات التطبيق تلك ما يطرأ عادة على كل تجربة بشرية من مظاهر التوفيق والنجاح أو عوامل القصور والفشل، ومن ثم بناء أو سقوط المجتمع والحضارة، وقد أدرك المسلمون قديماً ما تنطوي عليه أمثال هذه القيم الدينية والأخلاقية في صبغ الحضارات الناشئة عنها بصبغة خاصة، وقدرة تلك المفاهيم والقيم على توجيه الحياة الفردية والجماعية في أية حضارة.

المصادر

- القرآن الكريم.

١- الآلوسي شهاب الدين، روح المعاني، الناشر: إحياء التراث العربي، سنة الطبع ١٣٠٧ هـ ش.

٢- الاصفهاني محمد حسين، نهاية الدراية في شرح الكفاية، الناشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، مطبعة ياران، ط١، السنة ١٤١٤.

٣- الأصفهاني الراغب، مفردات غريب القرآن، الناشر: مكتبة: طليعة النور، سنة الطبع: ١٤٢٧هـ.

٤- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠٠٦.

٥- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط١، بيروت: دار صادر.

٦- ابن فارس أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، الناشر اتحاد الكتاب العربي، سنة الطبع: ١٤٠٤هـ.

٧- أردكان، حسن محيطي، القيم الأخلاقيّة؛ بين الاعتبار والواقع، مجلة الدليل، العدد السنة الثالثة، العدد ١٠.

٨- البوطي محمد سعيد، منهج الحضارة الاسلامية في القرآن، الناشر دار الفكر، بيروت.

٩- بدوي عبد الرحمن، الأخلاق النظرية، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، سنة ١٩٧٥.

١٠- التويجري عبد العزيز بن عثمان، خصائص الحضارة الاسلامية وآفاق المستقبل. الناشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، المغرب، ٢٠٠٣.

١١- الحارثي عدنان، مقالة العلم والحضارة عند المؤرخ ابن خلدون، موقع: **http://www.al-amir.info/.**

١٢- الجرجاني الشريف علي بن محمد، كتاب التعريفات، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٣- الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، دار الحديث بالقاهرة، ط الأولى ١٤٢١-٢٠٠٠.

١٤- الشافعي حسن، مقالة ماهي الحضارة الاسلامية، موقع مقالة: https://mkaleh.com.

١٥- الشلبي احمد، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، الناشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

١٦- شلبي أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، الناشر مكتبة وهبة للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠م.

١٧- الشيرازي ناصر مكارم، الأخلاق في القرآن، الناشر مدرسة الإمام ، الطبعة الثالثة، سنة الطبع ١٤٢٨هـ.

١٨- الشيرازي ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الناشر جامعة المدرسين قم المقدسة.

١٩- الصغير عبد المجيد، المبادئ الأساسية لأخلاق إنسانية في الإسلام، الموقع الإلكتروني : www.cilecenter.org.

٢٠- الطباطبائي محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: دار النشر الإسلامي، سنة الطبع ١٤٠٤هـ.

٢١- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، الناشر مؤسسة الرسالة، سنة النشر ٢٠٠٦م.

٢٢-الطيب الوزاني، مقالة العلم ودوره في بناء الحضارة، الموقع الإلكتروني: http://almahajjafes.net.

٢٣- عارف نصر محمد، الحضارة الثقافة والمدنية، ط٢. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٤- الغزالي أبي حامد محمد، مختصر إحياء علوم الدين، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافيّة، الطبعة الثالثة.

٢٥- فرهاني، سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار مع تطبيق النصوص الواردة فيها علي بحار الأنوار، محمد باقر للطباعة، ١٣١٩هـ.

٢٦- الكبيجي ماهر، النظام الاقتصادي بين الفكر البشري وشريعة الخالق https://ebook.univeyes.com/.

٢٧- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، ١٤٢٦هـ.
٢٨- عمر، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٢٩- يالجين، مقداد يالجن، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة ١٩٧١، دار الشروق، ط١، سنة ١٩٨٧.
٣٠- مؤنس حسن، الحضارة، الناشر المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، سنة النشر ١٩٧٨.
٣١- مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى.
٣٢- مصطفى مسلم، الثقافة الإسلامية تعريفها، مصادرها مجالها تحدياتها، إثراء للنشر والتوزيع، ط١، سنة ٢٠٠٧.
٣٣- المطهري، مرتضى، رؤى جديدة في الفكر الإسلامي، الناشر الزهيري للطباعة والنشر ط١سنة٢٠١٦م.
٣٤- الموسوي السبزواري السيد عبد الأعلى، مواهب الرحمان في تفسير القرآن، الناشر مؤسسة أهل البيت (ع)، الطبعة الثانية سنة الطبع ١٤٠٩هـ.
٣٥- الميداني، عبد الرحمن حبنكة، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم.
٣٦- الواعي توفيق يوسف، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط٢، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ٢٠٠٤م.
٣٧- ديورانت وليم جيمس، قصة الحضارة، الناشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع.
٣٨- اليزدي محمد تقي مصباح، أسس الأخلاق، الناشر جمعية المعارف الثقافية، ط١، سنة ٢٠١١.
٣٩- اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في فلسفة الأخلاق، الناشر مؤسسة اطلاعات، ط١، ٢٠٠٣م.
٤٠- اليزدي، الشيخ محمّد تقي مصباح، معرفة الذات وبناؤها من جديد، الناشر مؤسسة طريق الحق.
٤١- ناصف، مصطفى ناصف، سلسلة التكوين، نظريات التعلم. ترجمة علي حسين حجاج، عطية محمود هنا، دار المعرفة، سنة ١٩٧٨.
٤٢- عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الايجي، المواقف في علم الكلام، الناشر دار الجيل، بيروت تحقيق، د. عبد الرحمن عميرة، ط١، سنة ١٩٩٧.
٤٣- عبد الكريم الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، الناشر: مكتبة المثن، بغداد، سنة ١٩٦٥.
٤٤- مدخل إلى يوسيولوجيا الثقافة، ديفد انغليز، جون هيوسون، ترجمة لمى نصير، الناشر المركز العربي، للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط١، ٢٠١٣.
٤٥- عبد المحسن علي القيسي، العربية لغة وثقافة، الناشر دار الكتب العلمية، ٢٠١٩م.